التشبيه القرآني ودوره في تصوير حال الكافرين

د. عبد الحكيم أحمد سر الختم جيني @

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ملخص البحث:

ليس من الممكن أن يصل الباحثون في محيط القرآن إلى قرار، لما ينفرد به من سمو الأساليب ومعجز التراكيب، فكلما زدته إمعاناً زادك متعةً، وكلما أعطيته من جهدك، أعطاك من عذب ثماره ما يصقل ذوقك وينمي ملكات الجمال فيك .

ومن ثم كثرت البحوث في أساليب القرآن، وتعددت مناهجها وطرقها، ولا يزال هذا المورد معيناً لا ينضب على مرِّ العصور والأزمان، يرده رواد الفكر والبيان فيتزودون منه بأعظم زاد، ويمدون عقولهم بخير مدد .

ولقد كان من نعم الله عليَّ أن هداني إلى هذا الحقل الذي هو أخصب حقول المعرفة، فبحثت في وظيفة التشبيه والقرآني ودوره في تصوير حال الكافرين .

وفي هذا البحث عرضت لهذا الفن، موضحاً مفهومه وحدوده، وأثره في تصوير حال الكافرين وشأنهم، وضلال معتقداتهم وضعفها، وبطلان أعمالهم، وسوء مصيرهم، ومن خلال ذلك توصلت إلى النتائج التالية:

× أن التشبيه وسيلة من وسائل التهذيب والتربية، والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، والتزيين والتقبيح، والقوة والضعف، والهداية والضلال، والتعظيم والتحقير، إلى غير ذلك .

× الغرض الأساسي من التشبيه في القرآن الكريم هو توضيح الغامض، وتقريب البعيد، وتجلية المعنى، وبيان الأثر النفسي الذي تتركه الآيات، فالقرآن يخاطب كل القوى المدركة في الإنسان .

× جعل القرآن الكريم النفس والحس محوراً للتشبيه، لذا كان الغرض من التشبيه في القرآن الكريم هو إثارة الوجدان، فالصورة القرآنية تعتمد في تكوينها غالباً على الأساس النفسي .

× التشبيه يرسم صورة فنية كاملة الملامح، واضحة العبارة ، آسرة البيان .

× التشبيه ليس صورة شكلية جامدة، إنما هو نبض وحركة وتصوير وانفعال ، وهو صورة حية خالدة لا تتأثر بتقادم دهر ولا يسمو فوقها بيان، فهو يُكسب الكلام بيانا عجيباً، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في صورة المتيقن، والغائب كأنه شاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

× التشبيه إنما يُصار إليه لما فيه من رفع الحجب عن الغرض المطلوب .

× بعض صور التشبيه في القرآن جاءت مقرونة بالحض على التفكير، أو تقدير العلماء والمفكرين، أو مصحوبة بالسخرية من الجهال والأغبياء .

× تشبيهات القرآن دائماً ما تستمد خصائصها من الطبيعة، فهي كثيراً ما تظهر الأمور المعنوية بالصورة الحسية، مما يؤثر في النفس البشرية لمشاهدتها لها وإدراكها لعناصرها .

مقدمة :

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأبرار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

التشبيه لغة: التمثيل، وهو مصدر مشتق من مادة «شبه»، يقول ابن منظور: (والشبه والشِبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله، وأشبه فلاناً وشابهه، واشتبه عليّ، وتشابه الشيئان، واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه، وشبه به مثله، والتشبيه التمثيل)[1] .

أما التشبيه في اصطلاح البلاغيين، فله أكثر من تعريف، وهذه التعاريف وإن اختلفت لفظاً فهي متفقة في المعنى .

فابن رشيق القيرواني مثلاً يعرف التشبيه بقوله: (التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم: خدٌّ كالوردة إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه)[2].

ويعرفه أبو هلال العسكري فيقول: (التشبيه الوصف بأحد الوصفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، وذلك كقولك: زيد شديد كالأسد، فهذا القول هو الصواب في العرف، وداخل في محمود المبالغة وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد حقيقة)[3] .

ويعرفه الخطيب القزويني بقوله: (التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى)[4] .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ويقول أبو العباس المبرد: (واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشباه تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع)[٥] .

ويقول قدامة بن جعفر: (التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها)[٦] .

وللتشبيه تعريفات أخرى كثيرة لا تخرج في جوهرها ومضمونها عمَّا ذكر .

ومن مجموع هذه التعريفات نستطيع أن نقول أن التشبه هو: بيان أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها، ملفوظة أو مقدرة تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه .

والتشبيه أسبق مباحث علم البلاغة منذ العناية بشؤونها، فقد دارت فيه مباحث كثيرة، ولكن الدراسات التي قام بها الإمام عبد القاهر في التشبيه تعد خلاصة لجهود سابقيه، مع اعتبار إضافاته وابتكاراته ذات القيمة الكبيرة .

والهدف من هذا البحث ليس دراسة التشبيه ومراحل تطوره، إنما الغرض دراسة أسلوب التشبيه في القرآن الكريم وتحليل صوره وبيان أثره في تصوير المعاني وترسيخ مفاهيم العقيدة الإسلامية، فقد اعتمد القرآن الكريم في كثير من آياته على التمثيل والتصوير .

والتمثيل والتصوير إنما هما الطريق إلى المعاني المحتجبة في الأشياء حتى يبرزها ويكشف عنها ويصورها للأفهام، فكثيراً ما ضرب القرآن الأمثلة للدلالة على أنه الواحد الأحد، وأنه القادر، و ضرب الأمثلة لإثبات البعث، وللكشف عن كثير من الحقائق التي يجب ألاَّ يشك في صدقها عاقل .

قال تعالى: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[٧] ، وقال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[٨] .

ولم يفرق كثير من البلاغيين بين مصطلحي التشبيه والتمثيل، منهم الزمخشري الذي أشار إلى التمثيل في كثير من المواقع وهو يريد به التشبيه[٩] .

أما علماء البيان الذين فرقوا بين التشبيه والتمثيل، فمنهم الإمام عبد

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

القاهر الجرجاني الذي جعل التشبيه عاماً والتمثيل خاصاً وميز بينهما، فكل تمثيل عنده تشبيه، وليس كل تشبيه عنده تمثيل[١٠]، وقد تابعه في ذلك كثير من البلاغيين، منهم الرازي والخطيب والسكاكي.

أهداف البحث:

١/ تصوير حال الكافرين وشأنهم، وتوضيح ضلال معتقداتهم وضعفها، وبطلان أعمالهم، وسوء مصيرهم .

٢/ توضيح الوجوه البلاغية وقيمتها وما ينكشف عنها من أسرار ولطائف، وذلك في أعلى قمة بيانية وهي القرآن الكريم .

٣/ دراسة القيم البلاغية لآي الذكر الحكيم وتحليلها واستجلاء معانيها، وذلك من خلال صور التشبيه، باعتباره وسيلة من وسائل الكشف والإيضاح، والتهذيب والتربية، والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، والتزيين والتقبيح، والقوة والضعف، والهداية والضلال، والتعظيم والتحقير، إلى غير ذلك ...

٤/ التوسع في الدراسات القرآنية، وجعل القرآن الكريم مجالاً للتطبيق العلمي لكثير من الظواهر اللُغوية والبلاغية .

٥/ إضافة جديدة لحقل الدراسات البلاغية القرآنية، تفتح مجالاً أرحب لدراسات أخرى، وتنمي الحصيلة العلمية من خلال التطبيق والاطلاع على مصادر المعرفة المتنوعة .

أسباب اختيار الموضوع:

تتمثل في أهمية علم البلاغة لكل من تصدى لدراسة أساليب القرآن الكريم، ومعجز تراكيبه، وفهم معانيه، وكشف وجوه إعجازه المتمثلة في حسن التأليف وسحر البيان، وجزالة الكلمات وعذوبتها .

أهمية البحث:

١/ جاءت أهمية هذا البحث نابعة من اتصاله بخدمة القرآن، فهو يمثل فرصة للباحث للتفكر والتعبد والتلاوة .

٢/ استجابة للآراء المنادية بالتوسع في الدراسات القرآنية .

٣/ جعل القرآن الكريم مجالاً للتطبيق العلمي للظواهر اللُغوية والبلاغية، لما

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يتميز به من خصائص وسمات تكشف مناحي الجمال في الأسلوب القرآني .

مشكل البحث:

١/ الكشف عن قيمة التشبيه والتمثيل في القرآن الكريم .

٢/ توضيح أثر التشبيه ودوره في ترسيخ مفاهيم العقيدة الإسلامية .

٣/ تحليل الآيات الواردة في شأن الكافرين، وتوضيح ضلال معتقداتهم وضعفها، وبطلان أعمالهم، وسوء مصيرهم .

فرضيات البحث:

١/ ما قيمة التشبيه ؟ .

٢/ ما دور التشبيه القرآني وأثره في تصوير حال الكافرين؟ .

٣/ كيف صورت التشبيهات القرآنية حال الكافرين وشأنهم، وكيف بينت ضلال معتقداتهم وضعفها، وبطلان أعمالهم، وسوء مصيرهم؟.

٤/ كيف صور التشبيه القرآني خبايا النفس الإنسانة والحيوانية؟ .

٥/ ما الفرق بين تشبيهات القرآن وغيرها من التشبيهات الأخرى؟ .

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي التحليلي .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يجيء في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ونتائج وتوصيات، يمكن تفصيل ذلك في ما يلي:

المبحث الأول: خصصته لصور التشبيه القرآني ودورها في كشف ضلال الكافرين وضعف معتقداتهم .

أما المبحث الثاني: فقد جعلته لصور التشبيه القرآني ودورها في بطلان أعمال الكافرين، ثم عرضت في المبحث الثالث صوراً من التشبيه تكشف سوء مصيرهم وعاقبتهم .

المبحث الأول

صور التشبيه القرآني ودورها في كشف ضلال الكافرين وضعف معتقداتهم

الغرض الأساسي من التشبيه في القرآن الكريم هو توضيح الغامض، وتقريب

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

البعيد، وتجلية المعنى، وبيان الأثر النفسي الذي تتركه الآيات .

وقد جعل القرآن الكريم النفس والحس محوراً للتشبيه، بل جعل النصيب الأكبر والحظ الأوفى للنفس، لذا كان الغرض من التشبيه في القرآن الكريم هو إثارة الوجدان والتأثير في النفس، فهو يعمد إلى رسم صورة فنية للمشبه به توضح الغرض الذي سيق من أجله التشبيه، ولكي نستجلي ذلك علينا أن نقف عند بعض الآيات في كتاب الله تعالى .

منها قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[١١] .

إذا تدبرنا هذه الآية، رأينا فيها روعة الجلال والإبداع، فقد مثل الله تعالى للكفرة الفجار عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الواضحة بمثل بهائم الذي ينعق . والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت ، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التي لا تعي ولا تفهم[١٢] .

فهؤلاء الكفار كالبهائم السارحة، لا يسمعون ولا يفهمون كلام رب العزة والجلال، يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان، أي هم كالصم لا يسمعون من يدعوهم إلى الإيمان، وكالخرس لا ينطقون بخير، وكالعمي لا يبصرون طريق الرشاد والهدى، فهم في ضلالتهم يتخبطون لا يفقهون ولا يعقلون[١٣] .

وإذا تأملنا قوله تعالى: (ينعق بما لا يسمع) فإن النعق هو رفع الصوت إلى أعلى درجة الصياح، فالراعي يرفع الصوت ويصيح بالأغنام فيزجرها محذراً لها من الخطر ولكنها لا تستجيب له، لأنها لا تفهم مراده ولا كلامه، وهكذا مثل الكفار مع من يريد أن ينقذهم من عذاب النار، لا يسمعون ولا يفقهون، فهم شر من البهائم والأنعام، أو مثل داعي الذين كفروا إلى الإيمان كمثل الذي ينعق، أو كمثل بهائم الذي ينعق، وذلك بأنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، فقد مثلهم المولى عز وجل بالناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاءه ونداءه وتصويته وزجره، ولا تفقه شيئاً آخر، ولا تعي كما يعي العقلاء ويفهمون، وفي هذا بيان لإعراضهم عن دعوة الحق، فالإنذار وعدمه عندهم

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

سواء، لأنهم في الضلال سادرون . وقد آثر القرآن كلمة (ينعق) لما فيها من مناسبة للمعنى، والنعيق: التصويت، يقال: نعق الراعي بالضأن [١٤] .

فالقوم هنا مشبهون بالأنعام، فهي تسمع الصوت دوياً ولا تميز ما فيه من معان وقيم مدعو إليها، وهذا التعبير القرآني من قبيل التشبيه المركب، حيث شبه هيئة إعراضهم عن دعوة الحق بهيئة قطيع من الأغنام ينعق بها راعيها فلا تعي ولا تسمع، ووجه الشبه بين كل من الطرفين هو الضلال وسلب الإدراك .

والقرآن كثيراً ما يشبه الكافرين في ضلالهم بالأنعام، بل هم أكثر منها ضلالاً .

قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[١٥].

وهذا تصوير ثان لبيان ضلالهم، والهدف واحد في التشبيهين، إلا أن التشبيه السابق ملحوظ فيه حالهم مع الداعي لهم إلى الحق، أما التشبيه الثاني فهو يوضح حالهم مع كل ما يجب فهمه، ومع كل ما تجب رؤيته، ومع كل ما يجب سماعه، وفي هذه الصورة خبر وحكم(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنس) وهذا الخبر والحكم ذكرت بعده مسوغاته (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا) وهذه الصفات الثلاث المذكورة مقتضية لذلك المصير، وهو دخولهم جهنم، وفي نفس الوقت ممهدة لحكم آخر ودالة عليه (أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) فهؤلاء الكفار أشد ضلالاً من الأنعام؛ لأنها تنقاد إلى أربابها التي تعلفها وتتعهدها بالرعاية، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المصدر الهنيء والعذب الروي، لذلك كانوا هم الكاملين في الغفلة[١٦] .

وجاء تشبيههم بالأنعام كذلك في قوله تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)[١٧] .

وحتى تكتمل الصورة من كل الوجوه، شبه الحق تعالى أكلهم بأكل الأنعام

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فقال سبحانه: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَ مُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)[١٨]، أي يأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في المسارح والمعالف غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح[١٩].

الآن قد اكتملت الصورة التي رسمها القرآن لتشبيه الكافرين بالأنعام حتى لا يكادوا يمتازون عنها إلا في الهيكل العام.

وهناك خاصة فريدة في تشبيه القرآن لا بد من الإشارة إليها، فعندما شبه القوم بالأنعام ترقى في التشبيه ولم يرض مساواتهم بالأنعام فقال: (بل هم أضل).

وقد جاء مثل هذه الخاصة أيضاً في قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْد ذَلكَ فَ ِيَ كَالْحجَارَة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ منَ الْحجَارَة لَمَا يَتَفَجَّرُ منْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ منْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منْهُ الْمَاء وَإِنَّ منْهَا لَمَا يَهْبِطُ منْ خَشْيَة اللّه وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[٢٠].

فقد ترقى التشبيه هنا كما ترقى في الموضعين السابقين، وهذا الترقي حقيقة واقعة، فالحجارة أنواع: نوع يتفجر منه الأنهار، ونوع يشقق فيخرج منه الماء، ونوع يحس ويتأثر ويهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء ذاهبة في التجمد والتحجر مذهباً فقدت فيه وظائفها ففاقت الصخور في قسوتها وهي كتلة من لحم ودم.

ولبلوغ قلوبهم في القسوة درجة عظيمة عدل القرآن عن الإتيان بأفعل التفضيل من الفعل نفسه، فلم يقل: (أقسى) بل قال: (أشد قسوة) لأن هذا التعبير أوضح في دلالته على المراد هنا[٢١].

وهذه طائفة أخرى من التشبيهات تحمل في طياتها صوراً متعددة ذات روعة ودقة وانسجام.

قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للّه شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحدُ الْقَهَّارُ × أَنزَلَ منَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْديَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَممَّا يُوقدُونَ عَلَيْه في النَّار ابْتغَاء حلْيَة أَوْ مَتَاع زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلكَ يَضْربُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْض كَذَلكَ يَضْربُ اللّهُ الأَمْثَالَ)[٢٢].

يقول إمام البيان الشيخ عبد القاهر الجرجاني: النور في القرآن مستعار للبيان

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والحجة، ويستعار للعلم نفسه أيضاً وللإيمان، وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشبهة والجهل والكفر، وإذا استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبها كمن يسعى في الظلمة فيذهب في غير الطريق، وربما دُفع إلى هلك وتردى في أهوية[٢٣] .

ففي الآية الأولى: استعار القرآن لفظ (الأعمى) للكافر، ثم استعار لفظ الظلمات للكافر أيضاً، وهنا تتحد الصلة الوثيقة بين الكفر والعمى، ، فهو أعمى في ظلام، والعمى وحده حجب للرؤيا، فكيف إذا كان هذا الأعمى في ظلام؟ إنه أشد عرضة للهلاك، حيث لا يتقي بنفسه الشر ولا يتقيه سواه، لأنهم لا يرونه ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[٢٤] . هكذا يقول القرآن .

والأعمى الذي يتخبط في الظلام يحكم على الأشياء أحكاماً خاطئة، وكذلك حال الكافرين، فقد سوَل لهم ضلالهم أن يجعلوا لله سبحانه وتعالى شركاء لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون .

وهذه صورة أخرى تحمل ملامح الصورة المتقدمة، فقد ضُرب النور مثلاً للهداية، كما ضربت الظلمات مثلاً للكفر والضلال، ونفت أن يكون بين الفريقين شبه . وضُرب الموت مثلاً للكفر والضلال، والحياة مثلاً للإيمان والهدى، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢٥] .

أما في الآية الثانية: فقد مثل القرآن الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون وينتفعون به، مثله بالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي والأواني المختلفة، وأن ذلك ماكث في الأرض باق، فالماء تبقى آثاره، والجواهر تبقى أزمنة طويلة . ومثل الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب[٢٦] . فالحق ثابت وهو كثير النفع، والباطل زائل ليس له قرار، ضل من تمسك به، وكذلك يضرب الله الأمثال . وضرب المثل اعتماده وذكره، وعبر عنه بـ (الضرب)؛ لأن المثل له من التأثير القوي في النفوس مثل ما للضرب فيها من الإحساس[٢٧] .

وكما صورت التشبيهات القرآنية ضلال معتقدات الكافرين، صورت كذلك ضعف معتقداتهم، فها هي تصور حالهم بحال الكلب، ذلك المخلوق الحقير .

يقول سبحانه: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ × وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٨].

يقول الزمخشري: (فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة، كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها، وهي حالة دوام اللَّهث واتصاله به سواء حمل عليه، أي شد عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرض له بحمل عليه) [٢٩].

هذا الوصف يتضمن وصفهم بالحقارة والضعة، فالكلب كما هو معروف لا يطيعك في ترك اللهث، سواء حملت عليه أو تركته، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عنف . فالتشبيه إذن قد صور خبايا النفس الإنسانية والحيوانية وكيف تلتقيان في المعصية الخسيسة المدبرة عن عمد .

وهذان مثلان آخران يتضمنهما قوله تعالى: (ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ × وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [٣٠].

هذان المثلان ينفيان عن الأصنام صفة الكسب، فهي لا تقدر على شيء ... أي شيء .

ويلاحظ أنه تعالى لما نفى عنها هذه الصفة المهمة أثبت لها صفة أخرى تتم بها الصورة فيتحقق الضعف في أعلى أوضاعه، ففي المثل الأول عندما نفى عن العبد قدرته على شيء أثبت له الرق، والرق نفسه عجز، وقد مهد لهذه الصفة بذكر العبد مقدماً عليها (عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) وقارن صفته هذه المتناهية في الضعف بمن مَنَّ الله عليه بجلائل النعم من حرية تجعله حر التصرف محرر الإرادة، ورزق حسن ينفقه على المحتاجين وهو لا يخاف مالكاً يحجر عليه فهو ينفق منه سراً وجهراً .

وبعد هذه المقارنة ينفي المساواة بينهما من كل الوجوه، وهل تستوي العبودية مع الحرية، والعجز مع القدرة، والغنى مع الفقر؟. وفي المثال الثاني، حين نفى عن أحد الرجلين قدرته على الكسب مطلقاً، أثبت له صفة البكم، ثم قارن بينه وبين

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

من هو طلق اللسان، يأمر بالمعروف، وهو على صراط مستقيم، ثم نفى أن يكون بين الرجلين شبه، وهذا مثل مضروب لله تعالى كما يقول الزمخشري، فما كان في غاية العجز فهو الأصنام، وما كان في غاية القوة فهو الله[٣١] .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للَّهِ بَلْ أَكْثرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[٣٢] .

هذا المثل ضربه الله تعالى لمن يعبد آلهة شتى، فيلزمه أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا، ويبقى هو متحيراً ضائعاً، لا يدري أيهم يعبد، وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه؟ فهمه مشاع، وقلبه أوزاع، فهل يستوي حال هذا الحائر مع حال من يعبد إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه به، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله وآجله؟ فهنا اضطراب وقلق وحيرة وتشتت، وذلك مثل الكافر[٣٣] .

وهذا قياس من الواقع، يتضمنه قوله تعالى: (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً منْ أَنفُسكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٣٤] .

مثل مضروب لضعف الأصنام، ساقه الله لهم من أنفسهم، فهم لا ينكرونه، وهو مقارنة حال الأصنام مع خالقها وخالق مادتها بحال المملوكين مع مالكيهم، فالله يقول لهم: هل لكم ممن تملكون من الأرقاء شركاء في ما رزقناكم وملكته أيمانكم، فأنتم وهم متساوون في الملكية والتصرف، وإذا تصرفتم في شيء منه دون إذنهم خفتم من مساءلتهم لكم على هذا التصرف كما يخاف بعضكم بعضاً إذا تصرف واحد منكم في ما يملكه غيره؟ فهم لا شك منكرون أن يكون هذا حالهم مع حال مملوكيهم، وإذا تقرر ذلك فكيف يثبتون لله سبحانه شركاء فيما خلق؟ وهذا المثل يحتوي على تشبيه ضمني .

وهذه صورة أخرى بلغت فيها الأصنام حالة من الضعف المزري، تتمثل في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)[٣٥] .

أي الذين يدعونهم من دون الله لن يخلقوا ذباباً، والذباب مخلوق حقير وضيع، لن يخلقوه مجتمعين، فأولى متفرقين . وليت الأمر يقف عند هذا الحد، إذن

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

لهان الأمر، ولكن هذا المخلوق الحقير (الذباب) لو سلبهم شيئاً عجزوا عن استنقاذه منه، ضعف الطالب الذي هو الأصنام، وضعف المطلوب الذي هو الذباب، فوا عجباً الذباب هو المنتصر في هذه المعركة .

وهذه الصورة وإن لم تأت على طريق التشبيه الظاهر، فهي متضمنة له في المعنى .

يقول صاحب الكشاف: (قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم)[٣٦] .

وهذا مثل آخر في اعتمادهم على آلهتهم، يقول تعالى: (مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّه أَوْليَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[٣٧] .

يصور هذا التشبيه ما اعتمد عليه المشركون في عبادتهم لغير الله، وهذا لن يفيدهم، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدي . تشبه الآية ذلك بالعنكبوت، ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبذل جهده في التنظيم، وهو لا يبني سوى أوهن البيوت وأضعفها، فهذه الصورة المحسوسة قد قرنت بالأمر المعنوي فزادته وضوحاً وتأثيراً .

والغرض من هذه الآية تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت، مثل رجل آوى إلى بيت العنكبوت ليحميه من خطر متوقع ، إنهم يعلمون ما هو بيت العنكبوت، خيوط واهنة لو مر عليها نسيم هادىء لخرقها ومزقها[٣٨] .

والقرآن كما نرى إنما خاطبهم بما يسمعون ويشاهدون لعلهم يتذكرون، والعلاقة بين الهيئة الأولى والهيئة الثانية علاقة نفسية، فعباد الوثن يتخذون أحقر أنواع العبادة، والعنكبوت أقذر ما تقع عليه العين لأنه لا يألف إلاّ الأماكن المهجورة [٣٩] .

وهذه صورة أخرى يرسمها التشبيه القرآني، توضح حال الكافرين وهم مخدوعون إذا رجوا من أصنامهم خيراً، فالعابد يرفع حاجته إلى معبوده راجياً منه العطاء، والكافرون مخدوعون إذا رجوا من أصنامهم خيراً ، فالأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

تفقه شيئاً، ولا تملك فتعطي، هذه حقيقة، فكيف أخرجها التشبيه القرآني؟ .

قال تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ)[٤٠]، شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئاً، ولم يبلغ طلبه من شربه[٤١] .

هذا التشبيه فيه روعة وتصوير، تتمثل في الماء في دائرة كف بسطها صاحبها ليشرب فلم يبلغ فمه منه شيء، فماذا بقى إلَّا الحسرة والندم وشدة الظمأ، وقد اجتمع في هذه الآية المشبه والمشبه به في الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة ، فقد نفت الآية أن يستجاب لهم بشيء فأقنطوا، ثم ذكرت أداة الاستثناء، ومن شأن المستثنى أن يكون مغايراً للمستثنى منه فقيل إلا، فتعلقت آمالهم بالآلهة من جديد فانتظروا، فكان المستثنى أوقع في اليأس من المستثنى منه .

هذه صورة مرسومة بألفاظ مشعة فاقت ما يرسم بالألوان، صورة رجل منحنٍ على سطح ماء، مصاب بعجز يمنع يده أن تغرف منه، وهو ظامىء يكاد يقتله العطش، ولكنه في بلاهة يبسط يده إلى الماء راجياً أن يصعد إلى كفيه فيرتوي، فلا الماء صاعد، ولا هو مرتو مع قرب الماء وشدة الحاجة إليه، فما أضعف ما يطلبون منه العون، وما أشد عذابهم وآلامهم وضعف أنفسهم، وفي هذا التشبيه تأكيد الذم بما يشبه المدح، وهو لون بديعي .

وهاتان صورتان أخريان، يظهر فيهما ضعفهم وكيفية مواجهتهم لعظائم الأمور، إحداهما: تتمثل في قوله تعالى: (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً)[٤٢] ، والأخرى: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[٤٣] .

فهم عند الخوف رعاديد، تضطرب نفوسهم اضطراباً يظهر أثره على العيون فتدور في مكانها. شبه حالهم هذا بحال المحتضر عندما يأتيه الخطر من كل مكان فيستسلم من ضعف للخطر القوي الباطش .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الثاني

صور التشبيه القرآني ودورها في بطلان أعمال الكافرين

كما وضح التشبيه القرآني ضلال معتقد الكافرين وضعف آلهتهم وضعف أنفسهم ، بين كذلك بطلان أعمالهم التي يقدمونها ويحسبون أنها نافعة ، وذلك في صور أدبية رائعة مستوفية العناصر والأركان ، وهي صور كثيرة يُذكر منها على سبيل المثال مايلي:

الصورة الأولى: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطلُواْ صَدَقَاتكُم بالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذي يُنفقُ مَالَهُ رئَاء النَّاس وَلاَ يُؤْمنُ باللّه وَالْيَوْم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْه تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابلٌ فَتَركَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الْكَافرينَ)[٤٤] .

هذه الآية تمثل أعمال الكافرين الصالحة (بحسب الظاهر) كصلة القربى، والعطف على الفقراء، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك . وهذا المثل صورة أدبية رائعة موفية بالغرض، وهي تشبيه تمثيلي، مثلت فيه أعمال الكافرين بتراب منثور على صفوان أملس هطلت عليه الأمطار فحملته وذهبت به كل مذهب فلم يبق منه فوق الحجر شيء .

والصفوان هنا مراد به الكفر والرياء، فالصفوان لا ينبت ولا يمسك ماء، وفي هذا إشارة إلى عقم الكفر والرياء، ويراد بالوابل الإسلام؛ لأنه حكم ببطلان الكفر وما يصدر عنه من عمل .

وإذا عقدنا مقارنة بين الصفوان الذي هو الكفر والنفاق، والوابل الذي هو الإسلام أدركنا الفرق بين العقيم المحل والمثمر النضير.

أما الصورة الثانية: فهي قوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذينَ كَفَرُواْ برَبِّهمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ في يَوْم عَاصف لاَّ يَقْدرُونَ ممَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعيدُ)[٤٥] .

فتشبيهات القرآن كثيراً ما تظهر فيها الأمور المعنوية بالصورة الحسية ، فهذا رماد محترق لا تتعلق به آمال ولا يقر له قرار، فقد اشتدت به الريح، وهذا كاف لتبديده وتطييره .

ولزيادة تقنيطهم أضيف لكل ما سبق أمور يكاد عمل الكافرين معها يكون معدوماً، تلك الأمور هي: (في يَوْم عَاصف) (لاَّ يَقْدرُونَ ممَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ) (ذَلكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعيدُ) واشتداد الريح كان في يوم عاصف، وإسناد العصف إلى

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ضمير اليوم مبالغة في الشدة، فالأصل: معصوف فيه، وفي ذلك مجاز عقلي علاقته الزمانية، وقد وصف الضلال بالبعد ولم يقل المبين، لأن الريح طيرت الرماد إلى مسافات بعيدة جداً لو تعقبوها في تلك المسافات لوقعوا في حيرة وضلال بعيد، والمسافات يناسبها البعد.

ومثل هذا المعنى وارد في قوله تعالى: (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[٤٦].

يقول الزمخشري: (وشبه بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم ؛ لأن الإهلاك عن السخط أشد وأبلغ)[٤٧].

والصورة الثالثة: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[٤٨].

شبهت أعمال الكافرين في هاتين الآيتين بصورتين: الصورة الأولى: شبهت فيها بالسراب الذي يراه الناظر فيحسبه ماء، وإذا علق عليه الآمال وأراد أن يروي ظمأه وأقبل مسرعاً إليه لم يجده شيئاً.

وليت الأمر يقف عند خيبة الرجاء فحسب، بل أسلمه ذلك إلى مواطن الهلاك والضياع، وكذلك الكافر يقدم نحو عمله راجياً أن ينفعه فلا يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه وأدخله النار، ولقي الهلاك في مقام كان يتوقع فيه النجاة.

وإذا كان عملهم سبباً في إهلاكهم فما أحرى أن يسمى ظلمات، وهذا المعنى في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)[٤٩].

صورة مخيفة، البحر وحده خطر على من يركبه، فما بالك إذا كان هذا البحر ملفوفاً بالظلمات من كل جانب، والبحر هائج ثائر، الموج فيه طبقات بعضها فوق بعض، وفوق الموج سحاب يملأ الأفق ويسد منافذ الضوء.

وهناك ملاحظة لا بد من ذكرها، وهي أنه في مطلع الآية الأولى نجد التعبير (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ) وكان حق التعبير أن يقال: (ومثل أعمال الذين

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كفروا كسراب) فما السر في ذلك؟ .

أقول (والله أعلم): إن الناس جميعاً يوم القيامة مجردون من جميع الاعتبارات إلا اعتبار العمل صالحاً كان أم غير صالح، ففي تصديرهم وإبدال أعمالهم منهم إشعار بهذا المعنى ، فالإنسان يقاس بعمله فحسب .

أما الصورة الرابعة: فهي قوله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً)[٥٠] .

يقول الزمخشري: (مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ومنّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً)[٥١] .

ويلاحظ أنه لم يجعله هباءً فحسب ، بل جعله منثوراً ، ليفيد ذهاب أعمالهم من الأساس .

المبحث الثالث

صور التشبيه القرآني ودورها في كشف سوء مصير الكافرين

يؤدي ضلال المعتقد إلى بطلان السلوك و سوء المصير. وعلى هذا النسق كان تشبيه القرآن وتمثيله في جانب الكافرين، فسوء المصير يظهر واضحاً في صور كثيرة ، يُذكر منها ما يلي:

الصورة الأولى: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٥٢] .

هنا وجوه أرهقها الذل فأظلمت كأنها مغشاة بقطع من الليل اشتد ظلامه ، وليس لهم من عذاب الله من عاصم .

الصورة الثانية: قوله تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)[٥٣] .

تردٍّ مهلك ، فالمشرك بالله فاقد لكل سند يعتمد عليه في حياته الأولى والثانية، وهو صائر بلا محالة إلى أسوأ ألوان الهلاك. فالآية ترسم صورة هذه النهاية المؤلمة

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

، إنسان هوى من السماء، هوى ساقطاً على الأرض، وهنا يفترق الطريق شعبتين، كل واحدة منها تؤدي إلى خطر ماحق . الشعبة الأولى: (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) لقد تمزق قبل أن يصل إلى الأرض، لأن المسافة بين الأرض والسماء بعيدة جداً، لذلك فإن الطير تتوزعه في حواصلها فيصير غذاءً لها. أما الشعبة الثانية: (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) تسير به سيراً سريعاً، إلى أين؟ .

إلى مكان سحيق سحيق ... ، وهنا تكمن بواعث الخوف والرهبة، فالمكان هنا غير معروف ، وسر تنكيره للرهبة والخوف.

وقد آثر القرآن كلمة (خرَ) دون (سقط) ليشترك جرس اللفظ في الدلالة على المعنى مع المعنى نفسه ، فالساقط من علٍ يشق الهواء بجسمه فتسمع له صوتاً يشبه خرير الماء .

يقول صاحب الكشاف: (من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ....، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك باللّه بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة)[٥٤] .

وهذه صورة أخرى مقابلة للسابقة ، تصور حال الكافرين ، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٥٥] .

في هذه الصورة الأوهام الضالة تتسلمه ، والشيطان يغتاله بوساوسه فيضيق صدره، وتختنق أنفاسه، ويصبح أمره عسراً كأنما يصعد في السماء وهو ضارب بقدميه على الأرض، لأن صعوده في السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عليه المقدرة[٥٦].

وقد يكون التجاذب إلى أعلى مرة ثم إلى أسفل مرة أخرى دليلاً على قلق الكافر

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وتنازع أفكاره بين مهاوي الضلال والفتنة ونسمات الهدى والإيمان[٥٧] .

الصورة الرابعة: قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)[٥٨] .

صورت الآية مصير قوم ثمود خاصة بعد هلاكهم بأنهم كانوا كهشيم المحتظر ، ومادة (هشم) تدور حول تكسر المادة وصيرورتها أجزاءً، وهذا كاف في هلاكهم ، ولكنه يصف الهشيم بأنه (هشيم المحتظر) وهذا يفيد معنيين، الأول: أن الكوارث حلت بهم جميعاً فتساقطوا بعضهم فوق بعض، وهكذا يكون الهشيم في الحظيرة. والمعنى الثاني: أنهم أصبحوا وقوداً للنار تسرع فيه إذا اشتعلت؛ لأن هشيم المحتظر أكثر جفافاً من الهشيم الأخضر.

وهاتان صورتان أقرب لهذه الصورة ، فقد شبه القرآن الكافرين حين أخذهم الله بعقابه العاجل بأنهم أعجاز نخل، وذلك في موضعين، أحدهما: قوله تعالى: (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)[٥٩] ، أما الثاني: فقوله تعالى: (تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)[٦٠] .

فقد اجتمع في هذه الآية المَشَبه والمشبه به في قلع الريح وإهلاكها، فالآية صورة مدمدمة مخيفة، الريح صرصر مصوتة بأصوات مزعجة، وفي يوم نحس لا بركة فيه ولا خير، وهو مستمر على الشؤم .

يقول الزمخشري: (يعنى أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع ، منقعر: منقلع عن مغارسه، وقيل: شبهوا بأعجاز النخل؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس)[٦١] .

فتشبيههم بأعجاز النخل دون غيرها من الأطراف للإشعار بأنهم أُبيدوا من أصلهم فلم تبق لهم باقية ، فالأعجاز خاوية في آية الحاقة ، والنخل منقعر في آية القمر، وقد حرص القرآن في الموضعين أن يصف الأعجاز وصفاً متمماً للصورة ، وذلك لأن أعجاز النخل قد تكون قوية إن لم تكن خاوية ، أو لم يكن منقعراً.

الصورة الخامسة: توضح هذه الصورة مآل الكافرين وما يتصل بطعامهم وشرابهم فتضع كل كلمة في مكانها، قال تعالى: (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ×طَعَامُ الْأَثِيمِ×كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ×كَغَلْيِ الْحَمِيمِ)[٦٢] .

في هذه الآيات يشبه الحق تعالى طعام الأثيم بـ(المهل) ثم يصفه بأنه يغلي في البطون، ثم شبه غليه بـ (غلي الحميم) والحميم: الماء الحار الشديد الحرارة ، وقد

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ورد الحميم في شأن أهل النار كثيراً ، قال تعالى: (وَسُقُوا مَاء حَمِيماً)[٦٣](إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً)[٦٤](لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيم)[٦٥]

(يُصَبُّ من فَوْق رُؤُوسهمُ الْحَمِيمُ)[٦٦] (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيم)[٦٧] (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)[٦٨] ويطلق الحميم على العرق المتصبب، فبئس قوم هذا طعامهم .

هذا مصير أهل النار، طلبوا النجاة منها فأجيبوا بما يزيدهم حسرة وندامة، أجيبوا بماء حار ساخن ، قال تعالى: (وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً)[٦٩] ، وفي كلمة (يغاثوا) استعارة تهكمية، كقوله تعالى: (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم)[٧٠] .

وإذا كانت شجرة الزقوم طعام الأثيم، فكيف صورها القرآن؟ قال تعالى: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين)[٧١] .

يا للهول ويا لسوء المنقلب، حتى شكل الطعام مخيف، ومذاقه علقم ، وإذا كان هذا طعامهم ، فقد شربوا عليه شرب الهيم[٧٢] .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

خاتمة:

نتائج وتوصيات:

في هذا البحث عرضت صوراً للتشبيه القرآني، كشفتْ عن قيمته ووظيفته ودوره في تصوير حال الكافرين ، وتوضيح ضلال معتقداتهم وضعفها، وبطلان أعمالهم، وسوء مصيرهم، وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

١/ أن الغرض الأساسي من التشبيه في القرآن الكريم هو توضيح الغامض ، وتقريب البعيد ، وتجلية المعنى ، وبيان الأثر النفسي الذي تتركه الآيات ، برسم صور فنية توضح الغرض الذي من أجله سيق التشبيه ، وهي صور كاملة الملامح، واضحة العبارة ، آسرة البيان .

٢/ جعل القرآن الكريم النفس والحس محوراً للتشبيه، بل جعل النصيب الأكبر والحظ الأوفى للنفس، لذا كان الغرض من التشبيه في القرآن الكريم هو إثارة الوجدان والتأثير في النفس.

٣/ في كل صور التشبيه يخاطب القرآن كل القوى المدركة في الإنسان، العقل بما له من سلطان، والعواطف بما لها من تأثيرات، والنفس والوجدان، والحواس على اختلاف ما بينها من طبائع .

٤/ تشبيهات القرآن وتمثيله صوراً حية خالدة لا تتأثر بتقادم دهر ولا يسمو فوقها بيان . وتشبيهات القرآن دائماً ما تستمد خصائصها من الطبيعة، مما يؤثر في النفس البشرية لمشاهدتها لها وإدراكها لعناصرها، انظر إلى قوله تعالى: (الَّذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْ اً)[٧٣]، فقد شبه الحق تعالى ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق (من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تُخيِّب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدّر) شبه ذلك بسراب يراه الكافر وقد اشتد عليه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده فيأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغسّ ق .

فالسراب إذن فيه صورة قوية توضح أعمال الكفرة التي تظن أنها نافعة وما هي كذلك، وهذه الصورة صورة حسية شبهت بها الصورة العقلية حتى تستقر في النفس، وتتضح معالمها في الذهن، فتصبح صورة واضحة لا غموض فيها . فالتشبيه

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في القرآن إذن ليس صورة شكلية جامدة ، إنما هو نبض وحركة وتصوير وانفعال وإثارة شعور.

٥/ يُكسب التشبيه القرآني الكلام بيانا عجيباً، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في صورة المتيقن، والغائب كأنه شاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وهذه حقيقة واضحة، فقد رأينا ذلك في استعراضنا لكثير من صور التشبيه في القرآن الكريم، فهناك قوم صورتهم الآيات يتخذون أولياء من دون الله، فيعبدون الوثن، وعنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً، والعلاقة بين الهيئة الأولى والهيئة الثانية علاقة نفسية، فعباد الوثن يتخذون أحقر أنواع العبادة، والعنكبوت أقذر ما تقع عليه العين، لأنه لا يألف إلاّ الأماكن المهجورة، فالتشبيه هنا يقرر فكرة ضعف الكفر وقوة الإيمان، ويبين حقارة الكافرين وحقارة معبودهم، وعظمة المؤمنين وعظمة رب العالمين .

٦/ الصورة القرآنية تعتمد في تكوينها وتصويرها غالباً على الأساس النفسي، فالعظم والحقارة في المشبه تستدعي ما يلائمها في المشبه به، فالحق الواضح مثلاً يشبه بالنور، والباطل يجب أن يشبه بالظلام حتى يكون الواقع النفسي واحداً بين الطرفين.

٧/ التشبيه إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك.

٨/ جاءت بعض صور التشبيه في القرآن مقرونة بالحض على التفكير، أو تقدير العلماء والمفكرين، أو مصحوبة بالسخرية من الجهال والأغبياء .

ويوصي الباحث بما يلي بما يلي:

١/ لا يتصدى لتفسير القرآن إلا من كان عالماً بالبلاغة بارعاً منقباً فيها .

٢/ توجيه طلاب الدراسات العليا للبحث في القرآن الكريم باعتباره محوراً لأهداف الفكر والتأليف .

٣/ تزويد المكتبات الجامعية بالكتب المختصة بالدراسات القرآنية .

٤/ تدريس اللغة العربية في مؤسسات التعليم المختلفة من خلال النص القرآني .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

١. لسان العرب – ابن منظور – مادة (شبه) .
٢. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ ابن رشيق القيرواني ٢٥٦/١ .
٣. الصناعتين - أبو هلال العسكري – ص٢٣٩ .
٤. ينظر متن التلخيص – مجموع المتون الكبرى - ص٤٧٣ .
٥. الكامل في اللغة والأدب - المبرد٧٦٦/٢ .
٦. قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص١٢٢.
٧. سورة الزمر الآية (٢٧)
٨. سورة العنكبوت الآية (٤٣) .
٩. الكشاف:٣٨/١ .
١٠. ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري - محمد محمد أبو موسى – ص١٩٢ .
١١. سورة البقرة الآية (١٧١) .
١٢. ينظر الكشاف – الزمخشري ١٠٧/١
١٣. ينظر التصوير البياني - محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة -القاهرة ط٦ ٢٠٠٦م - ص ٤١ . والإبداع البياني في القرآن العظيم - محمد علي الصابوني - ط١ - ص ٤٦ . والتصوير الفني - سيد قطب - ص٣٤.
١٤. ينظر إرشاد العقل السليم ـ أبو السعود ٢٢٥/١ .
١٥. سورة الأعراف الآية (١٩٧) .
١٦. ينظر الكشاف:٢٥٤/٤ .
١٧. سورة الفرقان الآية (٤٤) .
١٨. سورة محمد الآية(١٢) .
١٩. ينظر الكشاف:٢٥٤/٤
٢٠. سورة البقرة الآية (٧٤) .
٢١. ينظر إرشاد العقل السليم- أبو السعود: ١٣٩/١. والكشاف: ١١٥/١
٢٢. سورة الرعد الآيتان (١٦-١٧) .
٢٣. انظر أسرار البلاغة: ص٤٦ .
٢٤. سورة النور الآية (٤٠) .
٢٥. سورة الأنعام الآية (١٢٢) .
٢٦. ينظر الكشاف: ٦/٢ .
٢٧. ينظر المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ـ عبد الغني الراجحي.
٢٨. سورة الأعراف الآيتان (١٧٥- ١٧٦) .
٢٩. الكشاف: ١٠٤/٢ .
٣٠. سورة النحل الآيتان (٧٥-٧٦) .
٣١. ينظر الكشاف: ٢٨٤/٢ .
٣٢. سورة الزمر الآية (٢٩) .
٣٣. انظر الكشاف: ٩٨/٤ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٣٤. سورة الروم الآية (٢٨) .

٣٥. سورة الحج الآية (٧٣) .

٣٦. الكشاف: ١٣٤/٣ .

٣٧. سورة العنكبوت الآية (٤١) .

٣٨. ينظر الكشاف:١٩١/٣ .

٣٩. تنظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ـ فتحي أحمد عامر ـ طبعة ١٩٧٦م- منشأة المعارف- الإسكندرية - ص ٤٢٧ .

٤٠. سورة الرعد الآية (١٤) .

٤١. الكشاف:٢٨٤/٢ .

٤٢. سورة الأحزاب الآية (١٩) .

٤٣. سورة محمد الآية (٢٠) .

٤٤. سورة البقرة الآية (٢٦٤) . × الصفوان: الحجر الأملس - الوابل: المطر العظيم - الصلد: الآجر النقي .

٤٥. سورة إبراهيم الآية (١٨) .

٤٦. سورة آل عمران الآية (١١٧) .

٤٧. الكشاف :٢١٢/١ .

٤٨. سورة النور الآية (٣٩) .

٤٩. سورة النور الآية (٤٠) .

٥٠. سورة الفرقان الآية (٢٣) .

٥١. الكشاف: ٩٤/٣ .

٥٢. سورة يونس الآية (٢٧) .

٥٣. سورة الحج الآية (٣١) .

٥٤. الكشاف: ٣٢/٣ .

٥٥. سورة الأنعام١٢٥ .

٥٦. الكشاف: ٥٠/٢ .

٥٧. - يقول الراغب: والصعد والصعيد والصعود واحد، ولكن الصعود والصعد يقال للعقبة ويستعار لكل شيء شاق تنظر المفردات للراغب ص٥٤٣ .

٥٨. سورة القمر الآية (٣١)

٥٩. سورة الحاقة الآية (٧) .

٦٠. سورة القمر الآية (٢٠) .

٦١. الكشاف:١٤٩/٣ .

٦٢. سورة الدخان الآيات (٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦) .

٦٣. سورة محمد الآية (١٥) .

٦٤. سورة النبأ الآية (٢٥) .

٦٥. سورة الأنعام الآية (٧٠) وسورة يونس الآية (٤)

٦٦. سورة الحج الآية (١٩) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٦٧. سورة الصافات الآية (٦٧) .

٦٨. سورة ص الآية (٥٧) .

٦٩. سورة الكهف الآية (٢٩)

٧٠. سورة آل عمران الآية (٢١) سورة التوبة الآية (٣٤) سورة الانشقاق الآية (٢٤) .

٧١. سورة الصافات الآية (٦٥) .

٧٢. ينظر الكشاف: ٥٩/٤ ، الهيم: الإبل تصاب بداء تشرب معه فلا تروى. قال ذو الرمة: فَأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيامها .

٧٣. سورة النور الآية (٣٨) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com